ابراهيم اصلان

البحث عن عنوان

بعد منتصف النهار بقليل ، كان هناك رجل نحيل يسير في خطوات مستقيمة على طوار الشارع الطويل الذي يقسم المدينة الى قسمين. وكان الطوار مزدحما بالنساء والرجال الذين كانوا يتقدمون في كلا الاتجاهين. وبدا ضوء الشمس منعكسا على سقوف العربات التي كانت صفوفها تدرج فوق الاسفلت في بطء شديد .

وكان ذلك الرجل النحيل يرتدي حلة رمادية خفيفة ، وفي يده جريدة مطوية ، ومقدمة رأسه خالية من الشعر . ولم يكن قد مضى عليه وقت قصير وهو يسير في ذلك الطريق الطويل ، عندما توقف بجوار سلة مهملات معدنية معلقة على احد الاعمدة العالية ، وراح يتابع الآدمي الكسيح الذي كان قد اعترض قدميه وهو يزحف في طريقه الى الجزء الداخلي من الطوار ، حيث اسند ظهره تحت احدى واجهات العرض الزجاجية ، ومد يده، وبدأ يتطلع الى المارة بعيون قلقة.

تأمله الرجل قليلا وهو ما زال واقفا في مكانه . نقل جريدته الى يده اليسرى واخرج باليمنى منديلا . مسح العرق عن وجهه ومقدمة رأسه وزفر في ضعف . وما ان اعاد المنديل الى جيبه وهمّ بالمسير ، حتى عاد وتوقف مرة اخرى ، وزوى ما بين حاجبيه قليلا .

على بعد خطوات قليلة منه، كان يقف رجل بدين يحدق فيه، وقد تدلى فكه واتسعت عيناه عن آخرهما .

وقف الرجلان في مواجهة بعضهما لفترة من الوقت . خلالها كان الرجل النحيل ينقل عينيه بين الرجل البدين واسفلت الطريق . ظل يفعل ذلك الى ان قطع البدين المسافة التي بينهما فجأة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة دهشة . قال وهو يكاد ان يلتصق به :

« اهلا وسهلا ! »

تراجع الرجل النحيل خطوة الى الخلف . اصبح بجوار سلة المهملات تماما . تمتم وهو يبادله النظر :

« اهلا بك يا افندم » .

قال الرجل البدين في صوت مرتفع :

« الا تذكرني ؟ »

تطلع اليه الرجل النحيل . وضع على وجهه ابتسامة صغيرة وهو يرد :

« والله ، في الحقيقة ، لا اذكر تماما . ولو ان الوجه ليس غريبا عني » .

قال البدين ، وكان يرتدي قميصا وسروالا ويضم الى صدره مجموعة من اللفافات :

« حاول ان تتذكر . انا سيد . سيد البلتاجي » .

مرة اخرى قال الرجل النحيل وجفناه يختلجان :

« في الحقيقة انا آسف . انا آسف فعلا » .

« ألست انت ... انت ... » وحرك رأسه في ضيق : « اسمك على لساني . انه على لساني » .

قال الرجل النحيل :

« انا اسمي عارف . عارف السقا » .

رفع الرجل البدين احدى يديه عن كومة اللفافات وقبض على ذراع الرجل النحيل وهزه صائحا :

«عارف السقا . نعم عارف السقا . هذا هو اسمك . تمام. اهلا وسهلا . تصور ، لو انتظرت دقيقة واحدة كنت تذكرته. ولكن كيف لا تذكرني ؟ الا تذكر سيد البلتاجي الذي كان يجلس وراءك في الفصل ؟ وراءك مباشرة » .

« حضرتك كنت زميلي في المدرسة ؟ »

« لا ! » وهمس وهو يربت على كتفه : « يبدو انك كبرت . ذاكرتك اصبحت ضعيفة » .

« انا كنت في مدرسة فاروق » .

ضحك البدين بقوة فانزلقت حبات العرق التي كانت معلقة على صدغيه . انزلقت فوق رقبته القصيرة الممتلئة والجزء العاري من صدره . قال :

« مدرسة فاروق ؟ ألم اقل لك ، انت كبرت وضعفت ذاكرتك ؟ » ثم استطرد في لهجة جادة: « ولكن كيف انت ؟ »

ابتسم الرجل النحيل : « لا بأس » .

مد البدين رقبته . تفرس في وجهه بعناية اكثر :

« ولكن كيف ظهر عليك الكبر هكذا ؟ »

« والله ، الظروف » .

« الظروف ؟ ما هذا الهدوء يا ولد ؟ »

ضحك الرجل النحيل. قال في لهجة مرتبكة :

« هدوء ! اي هدوء ؟»

« اي هدوء ؟ هدوءك انت ايها الشيطان . يا اشقى تلميذ رأته عيناي » .

« لهذه الدرجة ؟ »

« ياه . اسكت . اسكت . كنت شيطانا حقيقيا . اهلا وسهلا » .

وهنا وقعت احدى اللفافات التي كان البدين يضمها الى صدره. حاول ان ينحني بقامته القصيرة فكاد ان يهبط على ركبتيه. اسرع الرجل النحيل بالتقاطها واعادتها الى مكانها على صدر الآخر، الذي قال:

« اسمع ، هل تذكر مبروك ؟ »

« مبروك ؟ مبروك من ؟ »

« يا اخي ، الولد الاسمر . الله . الذي كنت تخطف منه الغذاء » .

ضحك : « هل كنت اخطف منه الغذاء ؟ »

« طبعا ! »

« شيء عجيب فعلا . في الحقيقة لا اذكر هذه الحكاية » .

« على اي حال ، الا تذكره ؟ »

هز الرجل النحيل رأسه نفيا . استطرد البدين وهو يتلفت حوله :

« اعتقد انك تذكره . تصور . حدثت له مسألة غريبة جدا » .

« كيف ؟ »

« مسألة في منتهى الغرابة » . وتلفت حوله مرة اخرى ، ثم اشار بذقنه الى اللفافات التي يحملها : « قلت اشتري بعض الملابس للاولاد . اسمع . تزوجت طبعا » .

« من ؟ »

« انت » .

« لا والله . ابدا » .

صاح البدين : « مستحيل . ما هذا يا عارف ؟ مستحيل جدا » .

« والله ، كانت هناك بعض المشاغل » .

« مشاغل ؟ اي مشاغل يا رجل ؟ اي مشاغل هـذه ؟ » وقطب جبينه : « مشاغل مادية ؟ »

« لا ، ابدا » . وضحك : « مشاغل من نوع آخر » .

« الى الآن ؟ لا بد انها من نوع آخر جدا . لا اتصور ابدا هذه الحكاية . انا مندهش جدا منها » . ثم صاح : « قل لي ، كيف حال الوالدة ؟ »

« تعيش انت » .

« لا يا شيخ ؟ لا حول ولا قوة الا بالله . اسمع ، اين تعمل الآن ؟ »

« في الحقيقة ... في الحقيقة لا اعمل عملا محددا » .

« هكذا انت . طول عمرك لا تستقر على شيء . ولكن كيف لا تذكر مبروك ؟ الولد الاسمر يا اخي » .

« اعتقد فعلا انه كان هناك ولد اسمر . ولكني اريد ... »

« هذا هو الذي اقصده . هذا هو مبروك . دنيا يا اخي . من يتصور اننا كنا سنفترق هذه المدة كلها ؟ هيه ... من يتصور ؟ »

قال الرجل النحيل : « فعلا » .

« او من يصدق اننا كنا سنلتقي هكذا ؟ هيه ؟ ولكن اين تسكن الآن ؟ »

« اسكن في العجوزة » .

« وانا في الحلمية الجديدة » . وانفجر ضاحكا : « عندما رأيتك لم اصدق ابدا . عارف هو صاحب هذا الوجه الجاد ؟ غير معقول . انا مندهش جدا » .

ضحك الرجل النحيل : « لماذا ؟ »

« لماذا ؟ تقولها لي انا ، يا اكبر المهرجين ، تقول هذا الكلام لي انا يا ولد ؟ اسمع ، اتذكر عندما ذهبنا رحلة الى جنينة الاسماك ؟ »

« جنينة الاسماك ؟ »

« عندما كان معنا ضابط المدرسة ، ورحنا نلعب ونأكل » .

« انت تعلم ان المدة طويلة » .

« طويلة جدا . عندما كنا نلعب فوق الجبلاية وقفزت انت وجرحت . كيف لا تذكر يا اخي ؟ »

« قفزت ! انا ؟ »

« نعم » .

« لماذا ؟ »

« هكذا . كنا نلعب فوق الجبلاية وضحكت انت وقفزت » .

« وهل جرحت ؟ »

« طبعا » .

« اين ؟ »

التفت الرجل البدين خلف امرأة كانت تعبر الطريق بطراوة ورداؤها يكشف عن جزء كبير من ظهرها . قال وهو يغمز بعينه :

« اسمع ، ما رأيك ؟ »

ابتسم الرجل النحيل ولم يرد. قال البدين وهو يشير مرة اخرى بذقنه الى اللفافات التي كان لا يزال يضمها الى صدره :

« قلت اشتري بعض الملابس للاولاد » .

« عندك اولاد ؟ »

« سميرة و عبده ومرسي ، خلاف واحد في الطريق » .

« عال عال » .

« طبعا . اسمع ، ساعطيك العنوان اتزورني . لا بد ان ترى الاولاد يا اخي » .

« ان شاء الله » .

« فكرتني ، هل تذكر مرسي افندي ؟ »

« مرسي افندي ؟ »

« مدرس الحساب يا اخي . ياه . كنت شيطانا جدا . اهلا وسهلا » . قهقه الرجل النحيل . تكونت شبكة دقيقة من التجاعيد عند زاويتي عينيه . صاح البدين :

« ضحك ولعب وقفز وضرب . ياه » . ثم صرخ : « دلقت الحبر مرة في قفا الولد الذي يجلس امامك » .

استسلم الرجلان للضحك . بكل ما يملكان من قوة راحا يقهقهان بجوار سلة المهملات. وكانت ضحكات البدين صاخبة ومتنوعة . اما الرجل الآخر النحيل فقد كان ينتفض ويعض بين الحين والآخر على شفته السفلى وهو مائل الى الامام . صرخ البدين :

« كنت اجلس وراءك مباشرة ، ورأيتك » .

اعتصر الرجل النحيل جريدته ، واغرورقت عيناه :

« هل ، هل رأيتني ؟ »

« نعم . رأيتك وانت تدلق الحبر في قفاه . وشهدت عليك » .

ضرب بيده على كتف البدين :

« هل فعلت ذلك ؟ »

« نعم . شهدت عليك . كنا اولاد » .

« وماذا فعل الضابط ؟ »

« لا بد انه ضربك » .

« هل ضربني ؟ »

« لا اذكر » . ودق الارض بقدمه : « لا بد انك هربت منه » .

كان المارة يرقبونهما ويفسحون الطريق من حولهما . القى الرجل النحيل بجريدته في

سلة المهملات :

« هل هربت منه ؟ »

« نعم . لا بد انك قفزت من النافذة . كنت شيطانا حقيقيا » .

« لا يمكن . كنا في الدور الاخير » .

« ابدا . كنا في الارضي » .

وضع يديه على كتفي الرجل البدين :

« وماذا فعل الولد ؟ »

« اي ولد ؟ »

« الذي دلقت الحبر في قفاه » .

« لابد انه بكى . نعم . انه بكى وكان لون وجهه ازرق » .

طوح الرجل النحيل برأسه وقد انتابته نوبة شديدة من السعال :

« هل بكى ؟ »

« بكى . واشتكى لامه » .

« واين هو الآن ؟ »

« لا اعرف . اسمع ، لا بد انه مات » .

قال الرجل النحيل في صوت واهن :

« آه . اتعبتني يا رجل » .

واخرج منديله ، وراح يجفف عينيه . بينما كان البدين يعدل من وضع اللفافات على صدره ، قال :

« انت كنت شيطانا حقيقيا . ياه . ضحك ولعب و ... »

شق الفضاء صوت فرملة حادة مفاجئة . صرخ البدين : « انظر . احتجزته الاشارة » .

نطق هذه العبارة الاخيرة ، وقفز من على الطوار وهرول الى الاتوبيس الذي كان على وشك التحرك . استدار الرجل النحيل بكل جسمه . رأى الايدي وهي تعينه على صعود العربة المزدحمة . همس وهو يمد يده :

« العنوان . لم تعطني العنوان » .

فعل ذلك في نفس اللحظة التي تحركت فيها العربة .

وقف وقد تغضن وجهه عن ذي قبل . وقف يتحسس ذقنه باصابعه الطويلة . ازاحه بعض المارة عن مكانه قليلا، فالتقت عيناه بعيني الكسيح في نظرة سريعة ملتمعة . على اثرها هز الرجل النحيل رأسه ، وتراجع الى الوراء في خطوات آلية مثقلة . واسند ظهره الى سلة المهملات ، وظل يتطلع الى بعيد ، حيث غابت العربة .